

# «البابوان» دراما سينمائية مذهشة عما يحدث داخل الفاتيكان

الحاجة إلى نظرة جديدة للعلاقة بين الدين والحياة



أمير العصري  
كاتب وناقد سينمائي مصري

لم تظهر أفلام سينمائية كثيرة عن بابا الفاتيكان، فقد كانت النظرة التقليدية إلى البابا أن هذه الشخصية التي يتطلع إليها أكثر من مليار وربع شخص في العالم، يجب أن تصور في سياق الفيلم الديني ذي الخلفية التاريخية، وهو ما يعتقد صناع السينما عموماً أنه جانب لا يمتلك جاذبية كبيرة لدى الجمهور العام. وقد تم تجاوز هذه النظرة في فيلم «اخترنا البابا» (Habemus Papam) للمخرج الإيطالي ناني موريتي، الذي كان أول كوميديا مكتملة دور داخل الفاتيكان، بطلها البابا الجديد المنتخب حديثاً الذي يشعر بأنه يرفض دوره ويتمرد عليه، فهو يريد أن يصبح إنساناً عادياً غير مقيد بكل تلك القيود الكهنوتية، يريد أن يختلط بالناس؛ يجالسهم ويسمع إليهم في المقاهي والحدايق العامة، وأن يستمع إلى الموسيقى، ويتمرد على المسرح ويتذكر ولعه القديم بالتمثيل.

كان هذا الفيلم هو المدخل الحقيقي الأول إلى شخصية البابا كإنسان، وليس ككائن مقدس، يعانى ويتمرد ويتسكك ويرفض ويريد أن ينتمي إلى العالم وليس إلى التقاليد الصارمة المفروضة منذ قرون داخل هذا المجمع المقدس (الفاتيكان). ولعل هذا الفيلم شجع المخرج باولو سورينتينو لإخراج مسلسلته البديع «البابا الشاب» واستكماله في «البابا الجديد» الذي سيرض أوائل العام القادم.

أما الفيلم الجديد «البابوان» The Two Popes، الذي عرضه مهرجان لندن السينمائي مؤخراً، فهو يتجاوز في جرائته وقفاصه ما بلغه موريتي في «اخترنا البابا». كما يتميز عن مسلسل سورينتينو بتناوله الواقعي للعلاقة بين الفاتيكان والعالم، وعلاقتها بما يحدث في العالم، فالفيلم لا يكفي بالكوميديا وهي جانب أساسي فيه، بل يصبح مباراة ذهنية وفكرية شيقة بين رجلين ينتميان إلى المؤسسة الدينية الراسخة، بل ويصعب رحلة في البحث الوجودي عن معنى الحياة، ومغزى الإيمان، والعلاقة بين الدين والدنيا، وبين الإيمان الغيبي والاختيار الإنساني، ومازق رجل الدين الذي يُطلب منه منح الغفران للأخريين في حين أنه لا يخلو من الخطايا.

## البابا بنديكت مثلًا يعترف للكاردينال بعد أن تكون العلاقة بينهما قد اكتست بالثقة، في مشهد يتلاشى فيه صوته، بما يمكن تفسيره بندهم على تسرته على الاعتداءات الجنسية داخل الكنيسة

لا يتناول الفيلم شخصية مفترضة للبابا كما في العامين السابقين، بل شخصيتين حقيقيتين يعرفهما العالم هما: البابا السابق (بنديكت) والبابا الحالي «فرانسيسكو»، من خلال أسلوب الدراما التسجيلية، التي توهمك بأنها تروي حقيقة ما دار بين الرجلين، في حين أنها تعتمد على الخيال الخصب المدهش الذي جادت به قريحة كاتب السيناريو النيوزيلندي الموهوب أنتوني ماكارتن (كاتب «نظرية كل شيء» و«أحلك الساعات»)، وصنع منها فنان السينما البرازيلي فرناندو ميريليس عملاً يرقى إلى مستوى التحف السينمائية، يجمع بين المتعة والفن والفكر والجمال البصري والصوتي.

يعتمد الفيلم على الانتقال في المكان والزمان، من الحاضر إلى الماضي، والعودة إلى الماضي الأعظم في سرد متعرج يمزج بين التسجيلي والروائي، مع انتقال في الألوان؛ إلى الأبيض والأسود، أو إلى اللون الواحد ذي المسحة القاتمة (في زمن الديكتاتورية العسكرية في الأرجنتين)، وتغير منسوب الشاشة من القديم إلى

## اللقاء الأول بين العملاقين

لا حاجة بنا إلى التطرق إلى دقة التصوير وبراعة تصميم الملابس والديكورات، والتصميم المبهر الذي تراعى فيه جميع التفاصيل لمشاهد اجتماعات الكرادلة، وتصوير مشاهد إطلالة البابا من شرفة الفاتيكان على الحشود التي تجتمعت في ساحة القديس بطرس، والمشهد المصور من الطائرة المروحية التي يستقلها الرجلان ويحلقان بها فوق روما في طريقهما إلى المنزل الريفي للبابا، وكلها مشاهد تضيء على الفيلم نبض الواقع، كما تستخدم جيداً في سياق الدراما الذهنية المثيرة... إلخ

## الفيلم يتفاضى عن ماضي البابا بنديكت وعلاقته بالشبيبة الهتلرية أو قناعتها بالنازية، أما الكاردينال بيرغوليو، فيكشف عن شعوره بالذنب لصمته عن جرائم الديكتاتورية العسكرية في الأرجنتين

ولم يكن الفيلم يأتي على كل هذا الروق والسحر والجمال إلا بأداء اثنين من عمالقة التمثيل في العالم، فكما أنه احتفال بالفن الرفيع، هو أيضاً احتفال بفن التمثيل. هنا يبلغ أداء أنتوني هوبكنز الذروة في دور البابا بنديكت، فهو يعبر بطريقته في الحركة ويظهره الغموس المنحنى، وإيماءات رأسه بشعره الأبيض، ونظرات عينيه التي تضيء وتتسع في رد فعل فوري على ما يسمعه من رفيقه وبدهشه، بل وحتى في طريقة إمساكه بالمظلة التي يلتقطها من الحديقة في أول لقاء له مع بيرغوليو، واستخدامها في تأكيد كلامه وسلطته، ثم تدرجه من الخشونة والقرمض وضيق الصدر إلى الرقة والفهم والود والتسامي، لتصبح العلاقة بينهما أقرب إلى الصداقة والفهم. ويؤدي هوبكنز مشهد العزف على البيانو بشكل مقنع كثيراً، كما ينتقل بين اللغات المختلفة (الإنجليزية والإسبانية والإيطالية واللاتينية) مع زميله الممثل العملاق جونان برايس (في دور بيرغوليو)، الذي يجيد الحديث باللهجة الأرجنتينية. وعندما يسأله بنديكت في النهاية؛ هل اشتقت للعودة إلى الوطن؟ يكون جوابه؛ أشعر بانتي سجين في اللغة الإنكليزية؛ لن تشعروا وأن تشاهد هذا الفيلم بلحظة واحدة من الملل بل متعة لا تعادلها متعة وأنت تشاهد تلك المباراة الهائلة في الأداء من جانب هوبكنز وبريس، وهما يعبران عن خلاصة تجربة طويلة وشاقة في التمثيل أمام الكاميرا. يجب أن يتجهز وتحثني بجمال الفن وعظمة الأداء.

الحوار مكتوب ببراعة لافتة للنظر، فهو ليس حواراً وتلفياً يجسد فقط الخلاف في الرأي بين الرجلين، بل ويضئ للمشاهد أيضاً نقاطاً مهمة في تاريخ الكنيسة. وتكمن براعته في انتقاله السلس بين المداعبة والتضاحك والمزاح ورواية النكات، والحديث عن أمور (أرضية تماماً) مثل الموسيقى وكرة القدم، وبين حاجة الناس في العالم اليوم إلى مواقف حاسمة واضحة من القضايا الكثيرة المعقدة.

نحن أمام مزيج مدهش من الدراما الجادة والكوميديا في سياق مرح لطيف لا يغيب عن باله أنه يخاطب جمهوراً يعيش أزمات العالم؛ التفرة العنصرية، صعود اليمين، الانقسام، الحواجز التي تقسم بين الناس في العالم، خاصة الحاجز الذي يقمه الرئيس ترامب بين بلاده والمسيك (ويظهر في الفيلم جانب منه)، وتلوث البيئة والفقر والديكتاتورية العسكرية في العالم الثالث، ومشكلة اللاجئين.. إلخ وكلها مجسدة على نحو أو آخر في الفيلم ولو من خلال لقطات سريعة تأتي في سياق الفيلم، تقطع في الوقت المناسب الحوارات الطويلة التي تجري بين الرجلين في المشاهد الداخلية، وتساهم في تخلص الفيلم من الطابع المسرحي الجامد.

## الاعتراف بالأثام

يعترف كل من الرجلين للأخر بما ارتكبه من آثام. البابا بنديكت مثلاً يعترف للكاردينال بعد أن تكون العلاقة بينهما قد اكتست بالثقة، في مشهد يتلاشى فيه صوته، بما يمكن تفسيره بندهم على تسرته على الاعتداءات الجنسية داخل الكنيسة، ولكنه يبال الغفران من الكاردينال. إلا أن الفيلم يتغاضى عن ماضي البابا بنديكت وعلاقته القديمة بالشبيبة الهتلرية أو قناعتها بالنازية. أما الكاردينال بيرغوليو، فيكشف عن شعوره بالدعوات المصورة عن شعوره بالذنب بسبب صمته أمام جرائم الطغمة الديكتاتورية العسكرية في الأرجنتين في السبعينات وجرائمها التي شملت زملاءه من القساوسة الجيزويت الذين كان يفترض أنهم تحت حمايته وقد تخلى عنهم.

بعد أن تذوب الثلوج بين الرجلين، وفي مشهد بديع يلعب فيه المونتاج الدور الأساسي، يجلس بنديكت يعزف على البيانو مقطوعة موسيقية يقول إن مغنية ألمانية يذكر اسمها كانت تغني على نغماتها قبل الحرب، وإنه كان معجباً بها. وعندما يودعه بيرغوليو في النهاية قبيل العودة إلى بلاده، يجذبه من ذراعته ويصر على أن يرقص معه رقصة التانغو التي اشتهرت بها الأرجنتين، على مرأى من المراقبين والحراس في فناء الفاتيكان.

أن يصبح خليفته، أي البابا القادم، فينبدت يعترزم الاستقالة ويريد أن يخلفه رجل تقدمي في أفكاره يعيد للكنيسة جاذبيتها، ولا يجد أفضل من بيرغوليو الذي سيصبح بالفعل في نهاية الفيلم، كما حدث في الواقع، البابا فرانسيسكو، بعد أن يستقيل البابا بنديكت في 2013 ليصبح أول بابا في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية يستقيل من المنصب البابوي طوال 600 سنة.

استقالة البابا جاءت في ضوء اتساع فضاء الاعتداءات الجنسية، ولكن الفيلم يلمس هذا الجانب بحذر، ويجعل البابا يقول إنه لم يعد يشعر بالانسجام في دوره، ورغم تمسكه بأفكاره القديمة إلا أنه معجب بجرأة ما يطرحه زميله من أفكار جديدة. فيرغوليو، الذي يريد أن يجعل الكنيسة أقرب إلى الناس، يغادر الفاتيكان وحده دون حراس أو مظاهر رسمية، يتوجه إلى فندق بسيط يقم فيه ليلة، يقصد مصفاً شعبياً حيث يشتري قطعة من البيتزا وقحماً من القهوة، تعجبه البترة فيقنع البابا فيما بعد بأن يطلب قطعة منها من نفس المكان، يتناولها بأيديهما معاً داخل الفاتيكان، بعد أن تكون العلاقة بينهما قد توصلت وزالت الفجوة التي كانت تفصل بينهما رغم بقاء الخلاف في الرؤية.

بيرغوليو مولع بكرة القدم وهو يتوجه وحده إلى ملعب كرة القدم لمشاهدة إحدى المباريات. ويقنع البابا العجوز بمشاهدة مباريات كأس العالم معه على شاشة التلفزيون، ويشعر بالابتهاج حينما يسجل منتخب الأرجنتين هدفاً للمنتخب الألماني في نهائي الكأس (2012)، كما أنه من المعجبين بفرقة موسيقى «أبأ» ABBA، ولا يكف عن التحدث عنها وعمما يعيشه من أغانيها.

هناك تتضح، من خلال الحوارات المكتوبة ببراعة والتي تستند إلى الخلفية الشخصية لكل من الرجلين، الفروق فيما بينهما؛ في الفكر والرؤية والنظرة إلى العالم.

## البابا لا يستقبل

بيرغوليو مثلاً يذكر البابا كيف أن أول بابا للفاتيكان كان متزوجاً، وأن عدم الزواج إلا في القرن الثاني عشر. ويقول إنه لم يعد يرى جدوى من منح الغفران، فالغفران يعفي الجاني وليس الضحية، بينما يرفض البابا بنديكت منطقة ويصفه بأنه «يبعث عن الحلول الوسط»، لكنه الكاردينال يصر أنه «يتغير»، وأنه لا مناص من التغيير حتى تستمر الكنيسة، ويمكنها أن تحتفظ باتباعها الذين يهجرونها يومياً بائع؛ ماذا تقصد؟

أن أسوق لسلة لا يريدها أحد.. سلة رديئة. لقد أصبحت الكنيسة موزقة لخدمة النرجسية. الحوار يمتد ويصل إلى درجة أن بنديكت المحافظ يسأل الكاردينال الأرجنتيني؛ أنت تريد التقاعد ولكن هل تريد أيضاً التخلي تماماً عن دورك كقس؟ البابا يرفض تماماً فكرة استقالة بيرغوليو، ليس فقط لأنه يرى أنها يمكن أن تفسر باعتبارها نقداً للفاتيكان وللبابا نفسه وسياساته، بل لأنه يخبر بيرغوليو، دورا أكبر،



## التمثيل يبلغ القمة في الفيلم